الفصل الأول

دراسة صوتية للتعبير القرآني المتضمن الدعاء لله ﷻ

◄ **المبحث الأول:**

دراسة صوتية للتعبير القرآني المتضمن دعاء الله تعالى لنفسه بصيغة (تبارك)

◄ **المبحث الثاني:**

دراسة صوتية للتعبير القرآني المتضمن دعاء الله تعالى لنفسه بصيغة (سبحان)

oneikanet.com

obeikandl.com

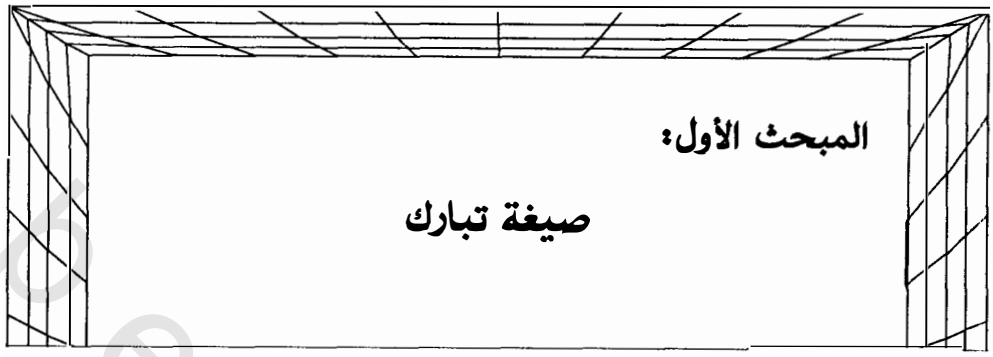

المبحث الأول:

صيغة تبارك

يلفت أنظار المتتبع آيات الدعاء في القرآن الكريم توافر نوع يسند الباري (جلَّ وعلا) الدعاءَ فيه إلى ذاته العلية، وقد توقفنا في تسمية هذا النوع من الدعاء، لأن الدعاء كما هو معلوم طلبٌ صادر ممن هو أدنى مرتبة إلى من هو أعلى منه مرتبة، وهذا التعريف لا يتحقق فيما أُسند إلى الله تعالى من كلام في ظاهره دعاء، لأن الأصل في الدعاء (أن يكون فعلاً لغير الله لما يدل عليه من افتقار الداعي إلى المدعو وكونه من أدنى إلى أعلى)[1]. وبعد نظر وتدبر ومشاورة ارتأينا أن يكون عنوان هذا اللون (التعبير القرآني المتضمن الدعاء بصيغة تبارك)، فلا ينبغي أن يكون الدعاء فعلاً لله هو فاعله لأن الله غنيٌ عن العالمين، (فالدعاء ينبغي أن يكون فعلاً لغير الله وأن يكون هو المدعو والطرف الأعلى فيه)[2]، ولهذا يلاحظ في الآيات التي ورد فيها هذا النوع من الدعاء أنه يخرج عن معناه الحقيقي وهو (طلب العون والمدد) إلى معنى إلهام المخاطبين بهذا الدعاء، وقد سمّي التهليل والتمجيد دعاءً لأنه بمنزلته في استيجاب ثواب الله وإنعامه، وقد قال تعالى في سورة يونس : ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3]، قال صاحب اللسان - وهو قول المفسرين أيضاً-: (أخبر أنهم يبتدئون دعاءهم بتعظيم الله وتنزيهه،

(1) دراسات جديدة في إعجاز القرآن مناهج تطبيقية في توظيف اللغة: 257.
(2) المصدر السابق نفسه: 255.
(3) سورة يونس، الآية: 10.

ويختمونه بشكره والثناء عليه فجعل تنزيهه دعاءً وتحميده دعاءً، والدعوى هنا معناها: الدعاء)[1]، وهذا ماحملنا على تسمية: (تبارك وسبحان والحمد لله) دعاءً.

وسنركز في هذا المبحث القول على الآيات التي فيها التعبير بصيغة (تبارك) التي أتت لبيان عظمة الخالق وكمال قدرته، ونجري عليها الدراسة الصوتية لنخلص إلى ما نسعى إليه من نتائج سنشير إليها.

ورد الدعاء بصيغة (تبارك) تسع مرات في القرآن الكريم، وهي تومئ إلى عظمة الخالق (جلّ وعلا) في هذه المواضع كلها، قال تعالى:

1 - ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

2 - ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[3].

3 - ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾[4].

4 - ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾[5].

5 - ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾[6].

6 - ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[7].

7 - ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[8].

8 - ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾[9].

---

(1) اللسان: مادة (دعا).
(2) سورة الأعراف، الآية: 54.
(3) سورة المؤمنون، الآية: 14.
(4) سورة الفرقان، الآية: 1.
(5) سورة الفرقان، الآية: 10.
(6) سورة الفرقان، الآية: 61.
(7) سورة غافر، الآية: 64.
(8) سورة الزخرف، الآية: 85.
(9) سورة الرحمٰن، الآية: 78.

9 - ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[1].

و(البرك) في اللغة: الثبات. قال ابن فارس: (الباء والراء والكاف أصل واحد وهو ثبات الشيء، ثم يتفرع فروعاً يقارب بعضها بعضاً)، وقال الخليل: البركة: من الزيادة والنماء، والتبريك: أن تدعو بالبركة، و(تَبَارَكَ اللهُ) تمجيد وتجليل، وفسر على (تعالى الله)، والله أعلم بما أراد)[2].

(وتبارك الله: تقدس وتنزه وتعالى وتعاظم، لا تكون هذه الصفة لغيره، . . ومعنى البركة: الكثرة في كل خير)[3]، والبركة. . . (السعادة، وتبارك بالشيء: تفاءل به)[4].

و(التبريك: الدعاء للإنسان وغيره بالبركة، ويقال دعاءً: (بارك الله فيك)[5]، ولا تخرج أقوال المفسرين عن هذه المعاني، فتبارك: (أصله من البركة، أي ثبوت الطائر على الماء، والبركة ثبوت الخير بنمائه)[6]، والبركة: (النماء والزيادة حسية كانت أو عقلية، وكثرة الخير ودوامه، نسبتها إلى الله ﷻ على المعنى الأول وهو الأليق بالمقام باعتبار تعاليه (جلَّ وعلا) عما سواه في ذاته وصفاته وأفعاله)[7] ويؤدي السياق العام الذي وردت فيه الآيات التسع وظيفة استجلاء الدلالة وسبر أغوارها، ففي سورة الأعراف جاءت الكلمة في السياق الآتي: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[8] فسياق الآية في بيان عظمة الخالق

(1) سورة الملك، الآية: 1.
(2) معجم مقاييس اللغة: مادة (برك).
(3) لسان العرب: مادة (برك).
(4) القاموس المحيط: مادة (برك).
(5) من أساليب القرآن: 26.
(6) مجمع البيان في تفسير القرآن: 10/ 67.
(7) روح المعاني: 29/ 3.
(8) سورة الأعراف، الآية: 54.

وكمال قدرته، فهو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في مدة يسيرة ثم استوى على العرش، يلحق الليل بالنهار والنهار بالليل، والليل لسرعة مضيه كأنه يطلب النهار، وخلق الشمس والقمر والنجوم، وهن مسخرات بأمر تكوين، فهو الذي خلق الأشياء وله الأمر، فكثر خير رب العالمين ودام بره وثبت)[1].

وسياق الآية في سورة (المؤمنون) بيان لمراحل خلق الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾[2] فأول خلق الإنسان من الطين، ثم نطفة في قرار مكين فالعلقة والمضغة والعظام وإكساؤها لحماً ثم إنشاؤها خلقاً آخر، فهذا الخلق البديع العجيب يستدعي التعظيم والتبجيل للخالق الذي سوَّى هذا المخلوق في أحسن تقويم فجاء الدعاء في نهاية السياق: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[3]. فقال هنا (أحسن الخالقين) لأن السياق في الحديث عن الخلق، وقال في الأعراف (رب العالمين) لأن السياق هناك كان عن جملة من المخلوقات عبد بعضها من دون الله كالشمس والقمر والنجوم، فقال تعالى ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فهو رب كل شيء ولا ربَّ سواه.

وجاءت الآية الأخرى في سورة الفرقان في السياق الآتي: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾[4] فهي رد على اعتراض المشركين على صفات الرسول وضربهم الأمثال الضالة وتخبطهم في ذلك، فقال تعالى: (تبارك...).

---

(1) تفسير النسفي: 366.

(2) سورة المؤمنون، الآيات: 12-14.

(3) سورة المؤمنون، الآية: 14.

(4) سورة الفرقان، الآيات: 7-10.

وهذا تمجيد وتعظيم لله تعالى وتنزيه له عن النقص، ومعنى تبارك هنا كما قال المفسرون (تمجّد وتعظم الله الكبير الجليل الذي لو أراد لجعل لك خيراً من ذلك الذي ذكروه من نعيم الدنيا)[1] فالآية في بيان قدرة الله تعالى على أكثر مما طلبه المشركون الذين اعتقدوا أنهم طلبوا محالاً لا يقدر عليه الله تعالى (تنزّه عن ذلك).

وجاءت الآية الأخرى في السورة نفسها في معرض الرد على عناد المشركين وامتناعهم عن السجود للرحمٰن، فيقول تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾[2] أي (تمجد وتعظم الله الذي جعل في السماء تلك الكواكب العظام المثيرة)[3] فالدعاء هنا بكلمة (تبارك) مشتمل على تقديس الله وتمجيده وتعظيمه، ويذكّر الدعاءُ أيضاً بالنعم الجليلة والخيرات الكثيرة التي أسبغها الله تعالى على عباده، لذلك قال عقبها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾[4] أي (لمن أراد أن يتذكر آلاء الله ويتفكر في بدائع صنعه أو أراد شكر الله على أفضاله ونعمائه)[5] فعندما أسند المشركون النقص إلى الباري ﷻ وقالوا باستخفاف ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؟ وهذا استفهام يوحي بالاستهزاء والتقليل من شأن المستفهم عنه، أجاب الله تعالى بقوله: (تبارك) ثم ذكر من صفاته (جعل البروج والسراج والقمر في السماء) وهي تدل على كمال القدرة والتصرف والخلق البديع. فمن كان هذا شأنه فهو جدير بالسجود، مستحق العبادة. وفي سورة غافر جاءت كلمة (تبارك) في سياق الرد على المشركين الذين انصرفوا عن عبادة الخالق إلى عبادة المخلوق، فقال تعالى:

---

(1) صفوة التفاسير: 2/ 356.
(2) سورة الفرقان، الآيتان: 60، 61.
(3) صفوة التفاسير: 2/ 369.
(4) سورة الفرقان، الآية: 62.
(5) صفوة التفاسير 2/ 369.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾[1] فالله تعالى الذي جعل الأرض قراراً لعباده أي (جعلها منزلاً لكم في حال الحياة وبعد الموت)[2]، جعل السماء سقفاً محفوظاً كالقبة المبنية المرفوعة فوقهم. ثم صورهم أحسن تصوير وخلقهم في أحسن الأشكال ورزقهم من أنواع اللذائذ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي (ذلكم الفاعل لهذه الأشياء والمنعم بهذه النعم هو ربكم لا إله إلا هو فتعالى وتمجد وتقدس رب جميع المخلوقات الذي لا تصلح الربوبية إلا له)[3] وقال تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾[4].

أي هو (جلَّ وعلا) معبودٌ في السماء ومعبودٌ في الأرض لأنه هو الإله الحق المستحق للعبادة في السماء والأرض... وهو إله من في السماء وإله من في الأرض يعبده أهلها وكلهم خاضعون له أذِلّاء بين يديه، وهو الحكيم في تدبير خلقه العليم بمصالحهم وهذا كالدليل على وحدانية الله تعالى، ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي (تمجد وتعظم الله الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات)[5] ووردت كلمة (تبارك) في سورة الرحمٰن، في قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ

(1) سورة غافر: الآيتان: 61 – 64.
(2) التفسير الكبير: 27/ 84.
(3) صفوة التفاسير: 3/ 108.
(4) سورة الزخرف، الآيات: 84، 85.
(5) صفوة التفاسير: 3/ 167.

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾[1].

فكلمة (تبارك) تأتي بعد أن يحصي الله تعالى كثيراً من نعمه على عباده في الجنة، فيختم ذلك بالتقديس والتنزيه وبيان كثرة خيراته وفيضان بركاته.

قال أبو حيان: (لما ختم تعالى نعم الدنيا بقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[2] ختم نعم الآخرة بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[3] وناسب هناك ذكر البقاء والديمومة له تعالى بعد ذكر فناء العالم، وناسب هنا ذكر البركة وهي النمو والزيادة عقب امتنانه على المؤمنين في دار كرامته وما آتاهم من الخير والفضل في دار النعيم)[4] وفي افتتاح سورة الملك قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾[5] أي (تمجد وتعالى الله العلي الكبير المفيض على المخلوقات من فنون الخيرات، الذي بقبضة قدرته ملك السموات والأرض، يتصرف فيهما كيف يشاء، ويحيي ويميت، ويغني ويفقر، ويعطي ويمنع)[6] ثم يتبع ذلك بمعجزة خلق السموات السبع طباقاً وأنه لا تفاوت في هذا الخلق العجيب ولا فطور.

والملاحظ أن المواطن التي ذكرت فيها كلمة (تبارك) لا تخلو من ذكر أحد هذه الأمور (السماوات، الأرض، الجنة، الإنسان) والبركة إنما تكون من

(1) سورة الرحمٰن، الآيات: 72-78.
(2) سورة الرحمٰن، الآية: 27.
(3) سورة الرحمٰن، الآية: 78.
(4) البحر المحيط: 8/ 200.
(5) سورة الملك، الآيات: 1-3.
(6) القرطبي: 18/ 181.

السماء أو الأرض أو كليهما، من السماء بالمطر، ومن الأرض بالشجر، وهي لخدمة الإنسان، أما الجنة فهي قمة النعيم والبركة. إذاً دلالة السياق في توضيح معاني (تبارك) إلى جانب كونها منبئةً عن تقديس الله تعالى وتنزيهه تشير إلى ما تتأتى منه البركة، والمستفيد من هذه البركات.

وبما أن هذه الأمور من الأعمال العظيمة التي لا طاقة لأحدٍ بها إلا الله تعالى فإن إيراد (تبارك) المنبئة عن العظمة والقدرة في هذا الجو مناسب.

الدراسة الصوتية:

لا شك في أن كلمة (تبارك) تتشكل من وحدات صوتية تحمل في طيّاتها سمات (أكوستيكية) ووظيفية، ونعمل هنا على تقطيع الآيات التي وردت فيها كلمة (تبارك) لنستخرج الفونيمات (الصوائت القصيرة والطويلة) ونبين نسبة المقاطع القصيرة والمتوسطة والطويلة (المفتوحة منها والمغلقة)، ثم نعرج على عدد الذبذبات العالية والمتوسطة والهابطة، نوضح بعدها عدد المجهورات والمهموسات، ويأتي هذا العمل بعد الحديث عن دلالة الاشتقاق الكبير في فونيمات تبارك، والدلالة الذاتية، أو القيمة التعبيرية في الفونيمات نفسها. ونربط ذلك كله بالسياق العام الذي وردت الآيات فيه، وسيوظف هذا كله لاستجلاء المعاني الثاوية تحت هذا الدعاء القرآني كاشفين جانباً من عظمة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم.

التقطيع الصوتي:

1 - قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]

ت ـَ/ ب ـــَـــ / ر ـَ/ ك ـَ ل/ ل ـــَـــ/ ه ـُ/ ر ـَ ب/ ب ـُ ل/

ص م/ ص م م/ ص م/ ص م ص/ ص م م/ ص م/ ص م ص/ ص م ص/

ع ـــَـــ/ ل ـَ/ م ـــِـــ/ ن ـَ.

(1) سورة الأعراف، الآية: 54، وسورة غافر، الآية: 64.

ص م م/ ص م/ ص م م/ ص م.

a	u	i	aa	uu	ii	م ق	م م م	م م غ	م ط	H.v	M.v	L.v	ج	هـ
14	4	0	4	0	2	10	4	6	0	22	8	2	34	6

ملاحظة: النتائج هنا مضاعفة لأن الآية مكررة في سورة (غافر).

2 – قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[1].

ت ـَ/ب ـَـَـ/ ر ـَ/ك ـَ ل/ ل ـَـَـ/ هـ ـُ/ ء ـَ ح/ س ـَ/ ن ـُ ل/

ص م/ص م م/ص م/ص م ص/ص م م/ ص م/ص م ص/ص م/ ص م ص/

خ ـَـَـ/ ل ـِ/ق ـِـِـ/ ن ـَ.

ص م م/ ص م/ ص م م/ ص م.

a	u	i	aa	uu	ii	م ق	م م م	م م غ	م ط	H.v	M.v	L.v	ج	هـ
6	2	1	3	0	1	6	4	3	0	8	7	2	15	6

3 – قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾[2].

ت ـَ/ب ـَـَـ/ ر ـَ/ ك ـَ ل/ ل ـَ/ ذ ـِـِـ/ ن ـَ ز/ ز ـَ/ ل ـَ ل/

ص م/ص م م/ص م/ص م ص/ص م/ص م م/ص م ص / ص م/ ص م ص/

ف ـُ ر/ق ـَـَـ/ ن ـَ.

ص م ص/ ص م م/ ص م.

a	u	i	aa	uu	ii	م ق	م م م	م م غ	م ط	H.v	M.v	L.v	ج	هـ
8	1	0	2	0	1	5	3	4	0	8	4	4	17	3

(1) سورة المؤمنون، الآية: 14.

(2) سورة الفرقان، الآية: 1.

obeikandl.com

4 – قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾[1].

ت ـَ/ ب ـَـَـ/ ر ـَ/ ك ـَ ل/ ل ـَ/ ذ ـِـِـ/ ء ـِ ن/ ش ـَـَـ/ ء ـَ/ ج ـَ/ ع ـَ

ص م/ ص م م/ ص م/ ص م ص/ ص م/ ص م م/ ص م ص/ ص م م/ ص م/ ص م/ ص م

/ ل ـَ/ ل ـَ/ ك ـَ/ خ ـَ ي/ ر ـَ ن/ م ـِ ن/ ذ ـَـَـ/ ل ـِ/ ك ـَ

/ ص م/ ص م/ ص م/ ص م ص/ ص م ص/ ص م ص/ ص م م/ ص م/ ص م

a	u	i	aa	uu	ii	م ق	م م م	م م غ	م ط	H.v	M.v	L.v	ج	هـ
13	0	2	3	0	2	11	4	4	1	12	10	4	23	6

5 – قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾[2].

ت ـَ/ ب ـَـَـ/ ر ـَ/ ك ـَ ل/ ل ـَ/ ذ ـِـِـ/ ج ـَ/ ع ـَ/ ل ـَ/ ف ـِ س

ص م/ ص م م/ ص م/ ص م ص/ ص م/ ص م م/ ص م/ ص م/ ص م/ ص م ص

س ـَ/ م ـَـَـ/ ء ـِ/ ب ـُ/ ر ـُـُـ/ ج ـَ ن.

ص م / ص م م/ ص م / ص م/ ص م م/ ص م ص.

a	u	i	aa	uu	ii	م ق	م م م	م م غ	م ط	H.v	M.v	L.v	ج	هـ
9	1	2	2	1	0	9	4	3	0	9	9	2	21	5

6 – قال تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3].

ت ـَ/ ب ـَـَـ/ ر ـَ/ ك ـَ ل/ ل ـَ/ ذ ـِـِـ/ ل ـَ/ هـ ـُ/ م ـُ ل/

(1) سورة الفرقان، الآية: 10.
(2) سورة الفرقان، الآية: 61.
(3) سورة الزخرف، الآية: 85.

ص م/ ص م م/ ص م/ ص م ص/ ص م/ ص م م/ ص م / ص م ص/

ك ـُ س/ س ـَ/ م ـــَـــ/ و ـــَـــ/ ت ـِ/ و ـَ ل/ ء ـَ ر/ ض ـِ.

ص م ص/ ص م/ ص م م/ ص م م / ص م/ ص م ص/ ص م ص/ ص م.

a	u	i	aa	uu	ii	م ق	م م م	م م غ	م ط	H.v	M.v	L.v	ج	هـ
8	2	2	3	2	4	8	4	5	0	12	7	4	23	7

7 – قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾[1].

ت ـَ/ ب ـــَـــ/ ر ـَ/ ك ـَ س/ م ـُ/ ر ـَ ب/ ب ـِ/ ك ـَ.

ص م / ص م م/ ص م/ ص م ص/ ص م/ ص م ص/ ص م/ ص م.

a	u	i	aa	uu	ii	م ق	م م م	م م غ	م ط	H.v	M.v	L.v	ج	هـ
5	1	1	1	0	0	5	1	2	0	6	4	1	8	4

8 – قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[2].

ت ـَ/ ب ـــَـــ/ ر ـَ /ك ـَ ل/ ل ـَ/ ذ ـــِـــ/ ب ـِ/ ي ـَ/ د ـِ/

ص م / ص م م/ ص م/ ص م ص/ ص م/ ص م م/ ص م/ ص م/ ص م /

هـ ـِ ل/ م ـُ ل/ ك ـُ.

ص م ص/ ص م ص/ ص م.

a	u	i	aa	uu	ii	م ق	م م م	م م غ	م ط	H.v	M.v	L.v	ج	هـ
5	1	3	1	0	2	7	2	3	0	8	6	2	15	4

(1) سورة الرحمٰن، الآية: 78.

(2) سورة الملك، الآية: 1.

openkandil.com

اسم السورة	رقم الآية	المصوتات القصيرة			المصوتات الطويلة			المقاطع				الذبذبات			المجهورات والمهموسات	
		a	u	i	aa	uu	ii	ق م	م م م	غ م م	م ط	H v	M v	L v	ج	هـ
الأعراف	45	7	2	0	2	0	1	5	2	3	0	11	4	1	17	3
المؤمنون	14	6	2	1	3	0	1	6	4	3	0	8	7	2	15	3
الفرقان	1	8	1	0	2	0	1	5	3	4	0	8	4	4	17	3
الفرقان	10	13	0	2	3	0	2	11	4	4	1	12	10	4	23	6
الفرقان	61	9	1	2	2	1	0	9	4	3	0	9	9	2	21	5
غافر	64	7	2	0	2	0	1	5	2	3	0	11	4	1	17	3
الزخرف	85	8	2	2	3	2	4	8	4	5	0	12	7	4	23	7
الرحمن	78	5	1	1	1	0	0	5	1	2	0	6	4	1	8	4
الملك	1	5	1	3	1	0	2	7	2	3	0	8	6	2	15	4
المجموع		68	12	11	19	3	12	61	26	30	1	85	55	21	156	41

الاستنتاجات:

بعد أن درسنا الآيات التي وردت بصيغة تبارك دراسة صوتية باعتماد التقطيع الصوتي تبين لنا الآتي:

(1) ارتفاع تكرر (الفتحة) من بين المصوتات القصيرة وعددها ثمانٍ وستون.

(2) ارتفاع تكرار (الألف) من بين المصوتات الطويلة، وعددها تسع عشرة.

(3) ارتفاع عدد الذبذبات العالية، وعددها (85) خمسٌ وثمانون ذبذبة.

(4) غلبة المقاطع القصيرة، إذ بلغ عددها واحداً وستين مقطعاً.

(5) بلغ عدد المقاطع المتوسطة مفتوحها ومغلقها ستةً وخمسين مقطعاً، وهذه نسبة مرتفعة أيضاً، والملاحظ أن عدد المقاطع المغلقة أكثر من المقاطع

المفتوحة، فعدد المقاطع المغلقة ثلاثون مقطعاً، وعدد المقاطع المفتوحة ستة وعشرون مقطعاً.

(6) الزيادة الملحوظة في عدد المجهورات فقد وصلت إلى (156) مئة وست وخمسين مرة، في حين قلت المهموسات فلم يتجاوز عددها واحداً وأربعين مرة[1].

وقبل الشروع في بيان الاستنتاجات التي تؤخذ من الإحصاء الذي أجريناه، نرى أنَّ ذكر الاشتقاق الأكبر وتطبيقه على فونيمات تبارك يعود بالنفع ويخدم الدراسة الصوتية التي نحن بصددها.

أولاً: الدلالة الاشتقاقية:

تؤدي خصيصة (الاشتقاق الأكبر) وظيفة صوتية مهمة في اللغة العربية، كونها لغة اشتقاقية، وهذه الوظيفة التي تتجلى في بناء الصيغ تؤول إلى دلالات تظهر قيمتها في طبيعة اختيار المنشئ لها وتوظيفها في التراكيب، يقول الفخر الرازي (ت606هـ):

(اعلم أن أكمل الطرق في تعريف مدلولات الألفاظ هو طريقة الاشتقاق)[2] وهو قد أورد أمثلة لبيان دلالات الألفاظ الناتجة عن الاشتقاق، منها قوله في اشتقاق (الكلمة): (اعلم أن تركيب الكاف واللام والميم بحسب تقاليبها الممكنة الستة تفيد القوة والشدة، خمسة منها معتبرة وواحد ضائع، فالأول (ك ل م) فمنه الكلام لأنه يقرع السمع ويؤثر فيه، وأيضاً يؤثر في الذهن بواسطة إفادة المعنى، ومنه (الكلم) للجرح وفيه شدة، الثاني (ك م ل) لأن الكامل أقوى من الناقص، والثالث (ل ك م) ومعنى الشدة في اللكم ظاهر، والرابع (م ك ل) ومنه بئر مكول إذا قل ماؤها، وإذا كان كذلك كان ورودها مكروهاً فيحصل نوع شدة عند ورودها، الخامس (م ل ك)، يقال: (ملكت العجين) إذا أمعنت عجنه فاشتد

(1) يراجع الجدول السابق.
(2) التفسير الكبير: 1/ 13.

وقوي، ومنه (ملك الإنسان) لأنه نوع قدرة، (أملكت الجارية) لأن بعلها يقدر عليها)[1]. وهو بذلك يبرز جانباً مهماً من هذه الخصيصة وهو تقارب المعاني الناتجة عن التحويل الموضعي للأصوات المكونة للصيغة الواحدة، ولو تعاملنا بالطريقة ذاتها مع (برك) فإنا نقول إن تركيبها الصوتي بحسب التبادل الموقعي يفيد (البركة) والصيغ الستة ليس فيها واحدٌ ضائع، فبرك معناه زاد خيره ونما، و(ب ك ر) إما من بكور الصباح، أو من بكر الفتاة، والخير في المعنيين ظاهر، فالبركة في البكور، والبكر خير من الثيب و(ك ب ر) من الكبر ضد الصغر، والبركة تكون في الشيء الكبير أكبر وأكثر، و(ك ر ب) من كرب الأرض للزراعة ونماء الخير وتحصيل الفائدة، و(ر ك ب) من ركوب السفن والدواب وغيرها للسفر والتجارة وتحصيل الأموال والمنافع بالتجارة، فالبركة بهذا المعنى موجودة في هذا التركيب أيضاً، و(ر ب ك) طعام خليط من تمر وسمن وأقِط[2]، والتمر فيه البركة، فكلمة (تبارك) في ذاتها مباركة، ذلك أن التحويلات الموضعية التي تنشأ من التبادل الموقعي للأصوات التي تؤسس بنية الصيغة تؤول إلى معانٍ هي قريبة من المعنى الأصلي الذي هو (الخير والبركة).

ثانياً: الدلالة الفونيمية:

من المعلوم أن الفونيم له وظيفة مهمة في تحديد الدلالات إذ إن ارتباطاً وشيجاً بين الفونيم والدلالات يظهر في أثناء التركيب، والفونيم هو (كل صوت قادر على إيجاد تغيير دلالي)[3].

ولو وقفنا النظر في الفونيمات التي تتكون منها لفظة (البركة) لوجدنا مناسبة واضحة بين فونيماتها ودلالاتها، فالبركة: النماء والزيادة، وكثرة الخير ودوامه.

وفونيمات (البركة) منبئة عن هذه الدلالة. فالباء فونيم شفوي وهو انحباسي

(1) التفسير الكبير: 1/ 14 - 15.
(2) لسان العرب: مادة (برك).
(3) دراسة الصوت اللغوي: 179.

انفجاري[1]، ووجوده في أول لفظة (بركة) علامة على تفجر البركة وتدفقها بقوة وثبات ثم يتلو ذلك حرف (الراء) وهو فونيم (مكرر)[2] له ارتباط بمغزى تكرر البركة ودوامها وعدم انقطاعها، (فمن معاني البركة: كثرة الخير ودوامه، والصيغة حينئذ يجوز أن تكون لإفادة نماء تلك الخيرات وازديادها شيئاً فشيئاً وآناً فآناً بحسب حدوثها أو حدوث متعلقاتها)[3] وهذه الدلالة للراء المكررة.

ويلي ذلك فونيم (الكاف) وهو فونيم (طبقي رخو)[4]، كأنه استشعار بإطباق البركة الأرض ومن عليها وأن البركة فيها الرخاء والنماء، وهذه المعاني غير بعيدة عن الدلالة التي يوحيها فونيم (الكاف) وهو فونيم وقفي انفجاري[5] فيه من معاني احتكاك البركة بمن تنزل عليهم البركات وأنها لا تخالفهم بل هي محتكة بهم نازلة لأجلهم. فصوته يحاكي احتكاك الخشب بالخشب، كما يوحي صوته بحاسة لمسية فيها القوّة والحرارة والامتلاء والاحتكاك)[6]، (وتدل غالباً على الأحداث والأصوات الشديدة وترتبط بها)[7].

وقد أشرنا في (التمهيد) إلى أن القدماء قد أولوا دلالات الأصوات اهتمامهم، وتوصلوا إلى معاني كثير من الكلمات من خلال الأصوات التي تشكل بناها، فقد ذكر (ابن جني 371هـ): (إن العرب قد جعلوا تكرير العين في الثلاثي دليلاً على تكرير الفعل، فللأصوات دلالات متى قويت قويت ومتى ضعفت ضعفت، ويكفيك من ذلك قولهم: قَطَعَ وقَطَّع، وكَسَرَ وكَسَّرَ، زادوا في الصوت لزيادة المعنى، واقتصدوا فيه لاقتصادهم فيه)[8]، وقال أيضاً: (وليس

(1) علم الأصوات: 52.
(2) التشكيل الصوتي: 55.
(3) روح المعاني: 29 / 3.
(4) علم الأصوات: 77.
(5) الأصوات اللغوية: 37.
(6) ينظر: خصائص الحروف العربية ومعانيها: 70.
(7) من صور الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم: 79.
(8) ينظر: الخصائص: 1 / 507، ومابعدها.

ينبغي أن يحتقر في هذه اللغة الشريفة تجانس الألفاظ، فإن أكثرها دائر عليه في أكثر الوقت)[1] هذا مع أن عدداً من الباحثين المحدثين ينكر فكرة الربط بين الأصوات في نظم الكلمة ودلالاتها، منهم (فندريس، وأولمان)، وهذا الأخير نفى أن تكون (هناك علاقة طبيعية بين الصيغة والمعنى) فهو يقول: (الكلمة منطوقة أو مكتوبة، واستعمال اللون الأسود علامة على الحزن، وهز الرأس دليلاً على الرفض... ما هي إلا وسائل تقليدية غير مفهومة خارج البيئة التي وجدت فيها)[2]. وثمة فريق آخر من المحدثين يذهب مذهباً مبايناً إذ يقر بالمناسبة بين الألفاظ والدلالات، فقد ذكر الدكتور إبراهيم أنيس أن (جسبرسن كان ممّن ينتصرون لأصحاب المناسبة بين الألفاظ ودلالاتها، غير أنه حذرنا من المغالاة في هذا)[3].

وقد نقل الدكتور حسام النعيمي اعتراض الدكتور أنيس على ابن جني الذي كان يؤمن بالرابطة المنطقية العقلية بين الأصوات والدلالات أو ما يسميه بعض المحدثين بالرمزية الصوتية، فقد قال الدكتور أنيس عن هذا المنهج: (بأن فيه قدراً كبيراً من التكلف والتعسف) ثم رد عليه الدكتور النعيمي قائلاً: (وأرى أن ما ورد في هذا الفصل من تقارب الصوت والمعنى لم يقصد به أنه شامل لكلِّ مفردات اللغة، فقد قال ابن جني نفسه: واعلم أنّا لا ندّعي أنّ هذا مستمرٌ في جميع اللغة)[4].

وعندما تحدث (سيد قطب) عن التناسق الفني في القرآن الكريم جعل من جملة هذا التناسق (الإيقاع الموسيقي الناشئ من تخير الألفاظ ونظمها في نسق خاص)[5]، وقال: (ومن الأوصاف التي اشتقها القرآن ليوم القيامة (الصاخّة)

(1) المحتسب: 2 / 218.
(2) دور الكلمة في اللغة: 29 - 30.
(3) دلالة الألفاظ: 68.
(4) الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني: 292 - 293.
(5) التصوير الفني في القرآن: 72.

و(الطّامّة)، والصاخّة لفظة تكاد تخرق صماخ الأذن في ثقلها وعنف جرسها، وشقها للهواء شقاً، حتى يصل إلى الأذن صاخًّا ملحًّا، والطّامّة لفظة ذات دويٍّ وطنين تخيّل إليك بجرسها المدوي أنها تطمُّ وتعمُّ، كالطوفان يغمر كل شيْء ويطويه.

ضع هذه الألفاظ بجوار ذلك اللفظ المشرق الرشيق (تنفس) ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾[1] تجد الإعجاز في اختيار الألفاظ لمواضعها، ونهوض هذه الألفاظ برسم الصور على اختلافها)[2].

ومن الغربيين أيضاً من قرر هذه المناسبة بين الصوت والدلالة ومنهم (kromby) إذ يقول: (إن المعنى والصوت كلاهما مرتبط بالآخر ارتباطاً لا يقبل التفرقة)[3]. وقال أيضاً: (كذلك قد يراعى في الألفاظ ناحية أدق وأخف...، وهي أن يكون بين أصواتها وبين الموضوع ملائمة بحيث يكون فيها تقليد للشيء الموصوف أو وحي إلى الخاطر يصعب تحديده، ولكنه محسوس، وهذه الخاصية للكلمات ينظر فيها إلى كل كلمة على حدة وتأثير أصواتها)[4].

ولا ينكر أنَّ (جرس اللفظ كان له حسابه في الدلالة وكان جزءاً في الاصطلاح الذي أنشأ المعنى اللغوي للفظة على الرغم من اختلاف دلالة الألفاظ على مدى العصور اختلافاً قد يصل إلى أن تعني اللفظة عكس ما كانت تُطلق عليه)[5].

ثالثاً: دلالة المصوتات:

ونستشف من الدراسة التي أجريناها أن عدد الفتحات (a) قد زاد فوصل إلى

(1) سورة التكوير، الآية: 18.
(2) التصوير الفني في القرآن: 77 - 78.
(3) قواعد النقد الأدبي: 39.
(4) قواعد النقد الأدبي: 41.
(5) ينظر: جرس الألفاظ: 292.

تسع وستين فتحةً، في حين قل عدد المصوتين الآخرَيْنِ، فلم تتجاوز الضمة (u) عتبة الاثنتي عشرة، وتكررت الكسرة إحدى عشرة مرة فقط. ومعلوم أن الفتحة من أخف المصوتات القصيرة)[1]، وظهورها بكثرة في السياقات تشير إلى مناسبات الوصف إلى جانب إشارات أخرى، وازديادها هنا لا يخلو من هذه الدلالة، فقد بيّنا أنّ (تبارك) هي وصف عظمة الباري وإشارة إلى كثرة خيراته ونمائها وازديادها، هذه الخيرات التي مصدرها السماء والأرض بواسطة:

(العلاقة السببية القائمة بينهما: الأرض، السماء، نزول الماء ← خروج الثمرات)[2]

المؤثر الأثر

والفتحة تشير إلى الانشراح أيضاً بقرائن السياقات التي ترد فيها، وبما أن المناسبة هنا هي الخير والنماء فإن ذلك يؤدي إلى انشراح قلوب من تتنزل عليهم البركات، فيستشف من غلبة الفتحة في هذا المقام تلك الدلالة أيضاً. والمناسبة بين الفتحة ومعانيها يؤكد عليها الغربيّون المحدثون، فهم يركزون على دلالات الحركات (المصوتات القصيرة) فيقولون: (إن /a/ الفتحة: تدل على البعد والاتساع كما في (far، large) بينما تدل /i/ الكسرة على الصغر والقرب، كما في (Tiny)[3]، و(يتسع الفم مع الفتحة أكثر من الكسرة)،[4] إذاً هناك مناسبة لطيفة بين ازدياد نسبة المصوت القصير (a) الفتحة واتساع الخير ونمائه في كلمة (تبارك) وسياقاتها.

وما لاحظناه أيضاً زيادة عدد المصوت الطويل /aa/ الألف الذي يمتد به الصوت ويتميز بوضوحه السمعي العالي)[5] فظهر في هذه السياقات تسع عشرة مرة لكي يكتسب السياق وضوحاً سمعياً يلائم إعلان الخير وظهور البركات

(1) التفسير الكبير: 1/ 47.
(2) لسانيات النص: 186.
(3) اللغة وعلم النفس: 27.
(4) general phonology: p: 21.
(5) الأصوات اللغوية رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية: 179.

وجلائها، وامتداد الصوت بالألف يرمز إلى سعة البركات وامتداد الخيرات وشمولها، فإن بركات الله تعالى غير منحصرة في عبادة الطائعين بل هي واسعة ممتدة تغمر الصالحين والطالحين، ويؤيد هذه الدلالة قلة ظهور المصوت الطويل/uu الواو، الضيق الذي تنضم معه الشفتان، فقد ظهر هذا المصوت ثلاث مرات فقط في تسع سياقات أجرينا عليها التقطيع الصوتي، ويمكن أن نستدل من ذلك نفي الضيق والتقتير عن البركات فهي واسعة ممتدة ليست ضيقة ولا شحيحة.

رابعاً: الدلالة المقطعية:

ظهر من خلال الإحصاء الذي قمنا به أن نسبة المقاطع المغلقة أكثر من المقاطع المفتوحة (ضمن المقاطع المتوسطة) فبلغ عددها ثلاثين مقطعاً. وبما أن الحديث في هذه السياقات يدور حول ثبات الخير ودوامه وعدم انقطاعه فقد ناسب ذلك كثرة المقاطع المغلقة في الكلام عن ذلك لأن الاستقرار والثبات إنما يكون مع الوقف الذي يتمثل في المقاطع المغلقة.

ذكر الدكتور حسام النعيمي: (أن في قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾[1] وقوفاً على ساكن علّةً دلالية، فقد كان من الممكن - في غير القرآن - أن يُقال: (وهو يهدي السبيلاً)، لكن تأمل المعنى يظهر علّة التضحية بموسيقا الفاصلة في تناغمها، على أنها تحولت إلى موسيقى أخرى تتفق وما تريده الدلالة، فهذا الجزء من الآية يتكلم على قول الحق، وهداية السبيل، والحق وسبيل الهداية إنما يليق بهما الثبات والاستقرار في الوقف، ولاشكَّ أن الإحساس النفسي بالثبات يكون مع الصوت الصامت غير المتبوع بمصوت أظهر منه مع الصامت المتبوع بمصوت طويل)[2] وهذه المقاطع بتنوعها تضفي إيقاعاً موسيقياً على النص مظهرة كثيراً من الدلالات الكامنة في النظم، ففي (القرآن

(1) سورة الأحزاب، الآية: 4.

(2) أبحاث في أصوات العربية: 145 - 146.

إيقاع موسيقي متعدد الأنواع يتناسق مع الجو ويؤدي وظيفة أساسية في البيان، هذه الموسيقى القرآنية إشعاع للنظم الخاص في كل موضع وتابعة لقصر الفواصل وطولها كما هي تابعة لانسجام الحروف في الكلمة المفردة ولانسجام الألفاظ في الفاصلة الواحدة)[1] فالثبات أو الاستقرار يلزمه الانتهاء بمقاطع مغلقة منتهية بصامت غير متبوع بمصوت طويل، وهذا ما يلاحظ في أغلب سياقات الدعاء بصيغة (تبارك) التي تومئ بالاستقرار والثبات والدوام وعدم نفاد خيرات الله تعالى وبركاته.

خامساً: دلالة الذبذبات:

ومن الاستنتاجات التي أشرنا إليها في الإحصاء أن الفونيمات ذوات الذبذبة العالية/ h. v/ كان لها النصيب الأوفر في الظهور أثناء السياقات التي وردت فيها (تبارك)، فكان عدد مرات ورودها خمساً وثمانين. وهذه الأنواع من الفونيمات تزداد - غالباً - في المناسبات الفخمة والمعاني العظيمة وذلك لما تمتاز به من قوة الإسماع الناتجة عن سرعة التردد (frequency)، والمواطن التي وردت فيها لفظة (تبارك) جلُّها تشير إلى عظمة الخالق وفخامة بركاته ودوامها ونمائها، فهذا الجو المفعم بالإعظام والتبجيل يناسبه الفونيم القوي ذو الإسماع العالي، الذي ينتج بتذبذب الوترين الصوتيين، فإن (من أهم الوظائف التي تؤديها ذبذبات الوترين الصوتيين إحداث الجهر في الأصوات)[2] وعلو الصوت: هو الأثر السمعي الناتج عن اتساع ذبذباته زيادةً ونقصاً[3] ومن جهة أخرى يعد (العلو loudness) أمراً سيكلوجياً وجدانياً، يتعلق بتأثير حالة قوة الذبذبة على أذن السامع)[4].

(1) التصوير الفني في القرآن: 84.
(2) الأصوات اللغوية رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية: 115.
(3) أصوات اللغة: 107.
(4) علم الأصوات: 20.

وهذه الفونيمات التي تمتاز بهذه الخاصية (قوة الإسماع) لها تأثير نفسي في السامع عندما ترد في سياقات معينة، فهي ليست بمعزل عن السياقات أثناء الدلالة، فقد أكد (Sausser): أن الشيء المهم هو أنه لا يمكن مطلقاً لكل كيفية صوتية مفردة لفونيم ما أن تدرس بمعزل وأن تقوم بذاتها، فما هو مهم هو تقابلها التبادلي ضمن نظام فونولوجي)[1] والفونيمات ذوات الذبذبة العالية /H.v/ وإن كانت من الصوامت، لكنها لا تقل كثيراً عن المصوتات في وضوحها السمعي، لذا يكثر استخدامها في السياقات التي تتطلب هذه الصفة، وقد أشرنا إلى أنَّ (تبارك) قد وردت في سياقات بيان كثرة خيرات الله ودوامها ونمائها وهي تشير إلى عظمة الباري (جلَّ وعلا)، فناسب هذا المقام الإكثار من استخدام الفونيمات ذوات الذبذبة العالية.

سادساً: دلالة الجهر والهمس:

ومما لاحظناه أيضاً في الإحصاء الصوتي الذي أجريناه على سياقات تبارك التغلب الواضح للفونيمات المجهورة، فقد وصلت إلى مائة وستة وخمسين فونيماً، مقابل واحد وأربعين فونيماً مهموساً، فالمجهورات كانت أكثر من ثلاثة أضعاف المهموسات، وصحيح أن المجهورات تزداد في الكلام لكن ليس بهذا التفاوت الملحوظ، لذلك نرى أن لهذه الظاهرة دلالتها وهي تتحد في ذلك مع الدلالات الأخرى التي أشرنا إليها في المصوتات والذبذبات - أعني الوضوح السمعي -.

ويمكن أن نستشف من الجهر والهمس في فونيمات (تبارك) وسياقاتها أنّ (البركة) تكون في الجهر والإسرار، ففي الحالين ينزل الله تعالى خيراته وبركاته، فمنها ما هو جهري معلوم مشاهد، ومنها سري خفي لا يعلم به إلا مَنْ تنزلت عليه البركة، لكن البركات الظاهرة أكثر من الخفية. ولفظة (برك) نفسها تتكون من مجهورين ومهموس، فالباء فونيم انفجاري مجهور، والكاف انفجاري

(1) ست محاضرات في الصوت والمعنى: 108.

مهموس، والراء ترددي مجهور، وهذا التقسيم في بيان بعض دلالات الألفاظ أشار إليه السلف، فقد بينوا (أنّ مجموع حروف فواتح السور بغير المكرر منها أربعة عشر حرفاً، هي نصف الحروف العربية، ولفتهم منها أنها نصف الحروف الهجائية على أي وجه من الوجوه التي اصطلح عليها علماء اللغة بعد نزول القرآن بزمن طويل)[1] ففيها (نصف الحروف المهموسة والمجهورة، وحروف الحلق والحروف غير الحلقية، والشديدة والرخوة، والمطبقة والمنفتحة، والمستعلية والمنخفضة)[2].

وقد أشار سيبويه إلى أنّ الهمس حرف أُضعف الاعتماد في موضعه فجرى النفس معه، والهمس الصوت الخفي، والمجهور حرف أشبع الاعتماد في موضعه فمنع النفس أن يجري معه، والجهر هو الإظهار[3]. فالهمس خفاء والجهر ظهور وهاتان السمتان رمزتا إلى الدلالة التي أشرنا إليها في أثناء الدراسة في (تبارك) وسياقاتها. وخلاصة القول: إننا تتبعنا فونيمات الدعاء بصيغة (تبارك) فلاحظنا أنّ دلالاتها متحدة تقريباً، فهي ترمز إلى دوام خيرات الله تعالى واستمرار بركاته وعدم انقطاعها، وهذه إشارة إلى عظمة الخالق جلَّ وعلا. فالمصوتات بامتدادتها وسعتها والمقاطع بانغلاقها والذبذبات بعلوها والمجهورات بكثرتها تضافرت في إضفاء هذه المعاني على هذا الدعاء وأوحت بهذه الدلالات التي لم تكن بعيدة عن معاني التراكيب في الآيات التي أجرينا عليها الدراسة الصوتية.

(1) من أسرار العربية في البيان القرآني: 15.
(2) الكشاف: 1 / 17.
(3) ينظر: الكتاب: 4 / 574.

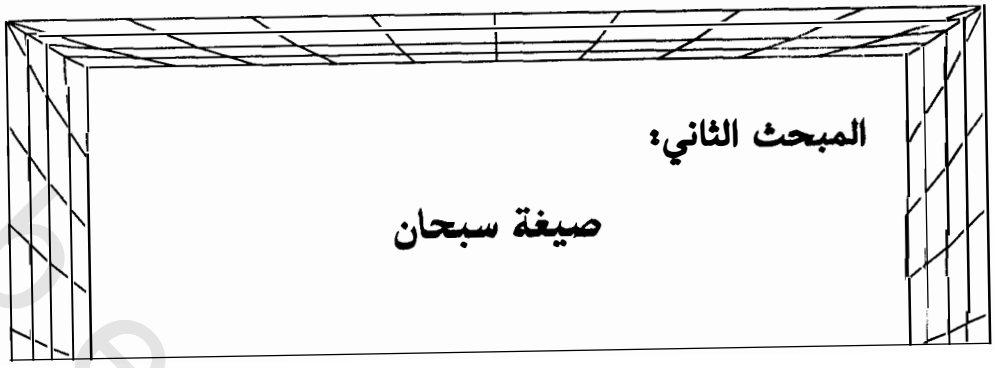

المبحث الثاني:

صيغة سبحان

ورد الدعاء بصيغة (سبحان) تقديساً وتنزيهاً لله تعالى، في تسعة مواطن من القرآن الكريم، وهي الآتية:

قال تعالى:

1 - ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

2 - ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾[2].

3 - ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[3]

4 - ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[4].

5 - ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[5].

6 - ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[6].

7 - ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[7].

---

(1) سورة النمل، الآية: 8.
(2) سورة الروم، الآية: 17.
(3) سورة يسّ، الآية: 83.
(4) سورة الصافات، الآية: 159.
(5) سورة الصافات، الآية: 180.
(6) سورة الزمر، الآية: 4.
(7) سورة الزخرف، الآية: 82.

obeikandl.com

8 - ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

9 - ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2].

ومما يعيننا على فهم دلالات الصيغة وكشف بواطنها السياق الذي تَرِدُ فيه الآية، وأقوالُ المفَسرين فيها، ففي سورة (النمل) قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3].

وهذا عندما سارَ مِنْ مَديَنَ، وَكانَ في لَيلَةٍ مُظلِمَةٍ بارِدَةٍ، وَقَدْ ضلَّ عن الطَريق، فَلَما وَصَلَ إلى مكانِ النار رَآها وَهيَ تَضطَرِمُ، فوقَفَ موسى مُتَعَجِّبًا مما رَأى وَجاءهُ النِداءُ العلوي ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ومعنى (سبحان)، أي: (تَقَدَّس وَتَنَزَه رب العِزَّةِ العلي الشَأن الذي لا يُشبِهُهُ شَيءٌ مِنْ مخلوقاته لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله)[4].

وقال تعالى في سورة الرّوم: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾[5].

قال الزمخشري (538هـ): (لما ذكر الوعد والوعيد أتبعه ذكر ما يوصل إلى الوعد وينجي من الوعيد، والمراد بالتسبيح ظاهره الذي هو تنزيه الله من السوءِ، والثناءُ عليهِ في هذهِ الأوقات لَما يتجدَد فيها مِن نِعمَةِ الله الظاهرة...)[6]، ففي الآيات ذِكر الوعد والوعيد، وحديثٌ عن كفر الكافرين وتكذيبهم بآيات الله ولقاءِ

(1) سورة الطور، الآية: 43.
(2) سورة الحشر، الآية: 23.
(3) سورة النمل، الآيتان: 7، 8.
(4) ينظر: تفسير ابن كثير: 3/ 475.
(5) سورة الروم، الآيات: 14 - 17.
(6) الكشاف: 3/ 217.

الآخرةِ، فالمقامُ يقتضي التنزيه والتَقديس، فكانَ الدعاءُ بذكر (سبحان) تعليماً للمؤمنينَ ورداً على افتراء الكافرين.

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿فَسُبْحَانَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

أي: (تَنزّه وتَمَجَّد عَن صِفات النَقص الإلٰه العظيم الجليل، الذي بيدهِ المُلكُ الواسِع والقُدرَةُ التامّة على كَلِّ الأشياء)[2].

وفي سورة الصافات نقل الله سبحانه وتعالى إفك المشركين إذ قالوا ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[3]، ثُمَ انتقل إلى أسطورة أخرى لفّقَها المشركون حيث زعموا أن هناك صلة بين الله سبحانه وبين الجنِّ، (وأنهُ من الزواج بين الله تعالى والجِنةِ ولِدَت الملائِكَة)[4]. فقال ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾[5]، أي جعل المشركون بين الله وبين الجن قرابة ونسباً (تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً)، فهذا الإفكُ الذي افتراه المشركون وإسنادهم النقص إلى الله تعالى يوجب تنزيه الله تعالى مِمّا يصفه به هؤلاء الظالمون، فقال تعالى بعد هذا الإفك ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[6]. فالمقام يقتضي هذا الدعاء وهذا التنزيه والتقديس.

وسبق هذا الكلام المبارك استثناء منقطع وهو قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[7]، وهو استثناء منقطع من المحضرين معناه: (ولكن المخلصين ناجون و(سبحان الله) اعتراض بين الاستثناء وبين ما وقع منه)[8]. فقد قطع

(1) سورة يسّ، الآية: 83.
(2) تفسير الطبري: 23/ 40.
(3) سورة الصافات، الآية: 152.
(4) صفوة التفاسير: 3/ 45.
(5) سورة الصافات، الآية: 158.
(6) سورة الصافات، الآية: 159.
(7) سورة الصافات، الآية: 160.
(8) الكشاف: 3/ 355.

سبحانه وتعالى الاستثناء، أو اعترض جملته بجملة دعائية تنبئُ عن التنزيه والتقديس، وكأن فظاعة ما نطق به المشركون يدعو إلى سرعة الإجابة وأنها لا تحتمل التأخير إلى إتمام جملة الاستثناء.

وكان هذا التنزيه في مقابل ما يصفه هؤلاء الكفرة، وفي السورة نفسها وبعد عدة آيات تكرر هذا الدعاء وكان في السياق الآتي:

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ ثم قال تعالى بعد عدة آيات: ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾[1].

قال الزمخشري: (أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها كأنه قيل: ذو العزة كما تقول صاحب صدق لاختصاصه بالصدق. ويجوز أن يراد أنه ما مِن عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلا وهو ربُّها ومالكها، كقوله تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾[2] اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون في الله ونسبوا إليه مما هو منزه عنه، وما عاناه المرسلون من جهتهم وما خُوِّلوه في العاقبة من النصرة عليهم، فختمها بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عما وصفه به المشركون والتسليم على المُرسلين)[3].

فإن الله سبحانه وتعالى في هذه المواطن (يسبح نفسه إذا قيل عليه البهتان)[4]، فمناط هذا (الدعاء) هو التنزيه والتسبيح والرد على البهتان وإلهام الصالحين كيفيةَ تنزيهه تعالى.

والموطن الآخر الذي ورد فيه الدعاء بصيغة (سبحان) هو سورة (الزمر) إذ قال تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ

(1) سورة الصافات، الآيات: 167 – 180.
(2) سورة آل عمران، الآية: 26.
(3) الكشاف: 3/ 357، 358.
(4) الطبري: 23/ 137.

ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[1]. أي: (تنزّه جلَّ وعلا وتقدَّس عن الشريك والولد، لأنه هو الإلٰه الواحد المنزه عن النظير والمثيل)[2]. فالدعاء جاء رداً على الادعاء الفظيع الذي ادعاه الكفار من نسبة الولد إليه تعالى، فكان الرد بالتنزيه والتقديس ودفع هذه الفرية العظيمة ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[3] تنزيهاً لله عن أن يكون له ولد، وعما أضاف إليه المشركون في شركهم، (هو الله)، يقول: هو الذي يعبده كل شيء، ولو كان له ولد لم يكن له عبداً، يقول: فالأشياءُ كلها له ملك، فأنّى يَكونَ لهُ ولدٌ وهو الواحِد الذي لا شَريكَ له في ملكه وسلطانِهِ، والقهار لِخلقهِ بقدرتهِ، فكل شيء لهُ متذلل، ومِن سطوته خاشعٌ)[4].

وكان السبب نفسه داعياً إلى هذا (الدعاء) في سورة الزخرف أي نسبة الولد إلى الله تعالى، فردَّ الله تعالى ذلك، ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾[5].

قال القرطبي: (وهو كما تقول لمن تناظره: إن ثبتَ ما قلتَ بالدليل فأنا أولُ من يعتقده، وهذا مبالغة في الاستبعاد، وترقيق في الكلام)[6].

وقال مجاهد: (المعنى: إنْ كان للرحمٰن ولد فأنا أول من عبده ووحّده، على أنّه لاولد له)[7].

والآية من المشكل الذي يحتاج إلى تأويل فأشار ابن قتيبة (276هـ) إليها شارحاً الآية قائلاً: (لما قال المشركون: لله ولدٌ، ولم يرجعوا عن مقالتهم بما أنزله الله على رسوله عليه السلام، من التبرؤ من ذلك قال الله (سبحانه) لرسوله عليه السلام:

(1) سورة الزمر، الآية: 4.
(2) صفوة التفاسير: 3/ 70.
(3) سورة الزمر، الآية: 4.
(4) الطبري: 23/ 123.
(5) سورة الزخرف، الآيتان: 81، 82.
(6) تفسير القرطبي: 16/ 119.
(7) تفسير القرطبي: 16/ 119.

قل لهم: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ أي: عندكم، ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: الموحدين، ومن وحَّدَ الله فقد عبده، ومَنْ جعلَ لهُ ولداً أو نداً، فليس من العابدين، وإن اجتهد)[1].

وفي سورة الطور جاءت كلمة (سبحان) في السياق الآتي: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾[2].

جاء دعاء (سبحان الله) بعد افتراءات ادعاها الكفار إذ قالوا عن النبي ﷺ إنه شاعر، ثم قالوا: إن محمداً ﷺ تقوَّلَ القرآن، ولم يكتفوا بذلك بل تجاوزوا الحدَّ أكثر فأكثر فأنكروا وجود الله ونسبوا إليه البناتِ...

فردَّ الله تعالى عليهم وسفّهَ أحلامهم توبيخاً لهم وتقريعاً، والمعنى: (أتضيفون إلى الله البنات مع أَنَفَتكم منهنَّ؟ من كان عقله هكذا فلا يستبعد منه إنكار البعث)[3].

ثم أردف الله تعالى هذا الكلام بالدعاء قائلاً: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[4] أي تنزه وتقدس الله عما يشركون به من الأوثان والأصنام..

والملاحظ أن الاستفهام بـ(أم) جاء قبل هذا الدعاء خمس عشرة مرةً وهي في مواضعها جميعاً (تفيد التوبيخ والتقريع والإنكار)[5].

ولأن هذه الافتراءات بلغت مبلغاً كبيراً من الشناعة والقبح كان لزاماً الجواب والردّ بما يدفع هذه الافتراءات ثم تنزيه الله تعالى عن هذه النقائص بإيراد ما يوجب التقديس والتنزيه، ولفظ (سبحان) خير ما يؤدي هذا المعنى فكان إيراده في هذا السياق مناسباً.

---

(1) تأويل مشكل القرآن: 373.
(2) سورة الطور، الآيات: 39 - 43.
(3) تفسير القرطبي: 17/ 76.
(4) سورة الطور، الآية: 43.
(5) ينظر: تفسير الجلالين: ص 379.

والموضع الأخير الذي لاحظنا ورود لفظ «سبحان» فيه، الآية الثالثة والعشرون في سورة الحشر فقد ورد الدعاء بصيغة (سبحان) هناك في السياق الآتي: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1].

بعد أن يوبّخَ الله تعالى الإنسان الذي لا يتخشع عند تلاوة القرآن يشير إلى عظمة هذا القرآن الذي لو أُنزل على جبل لتخشع وتصدّع، ثم أتبع ذلك بشرح عظمته وجلاله بذكر بعض صفاته وهي (الوحدانية وعلم السّر والعلن والرحمة في الدنيا والآخرة ومالكية جميع المخلوقات، والتنزه عن القبائح و(السلام)، أي ذو السلامة من كل نقص وآفة)[2]. و(المصدق لرسله بإظهار المعجزات على أيديهم، والرقيب الحافظ لكل شيء)[3]، والقدرة والجبروت والكبرياء الذي لا يليق إلا بجلاله.

قال الرازي: (واعلم أن المتكبر في صفة الناس صفة ذم، لأن المتكبر هو الذي يظهر من نفسه الكبر، وذلك نقص في حق الخلق، لأنه ليس له كبر ولا علو بل ليس له إلا الذلة والمسكنة، فإذا أظهر العلو كان كاذباً فكان مذموماً في حق الناس، وأما الحق سبحانه فله جميع أنواع العلو والكبرياء، فإذا أظهره فقد أرشد العباد إلى تعريف جلاله وعظمته وعلوه، فكان ذلك في غاية المدح في حقه (جل وعلا)[4].

ثم قال تعالى في آخر الآية: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[5] (نزه ذاته عمّا يصفه

(1) سورة الحشر، الآيات: 21 – 23.
(2) تفسير البيضاوي: 5/ 293.
(3) صفوة التفاسير: 3/ 356.
(4) التفسير الكبير: 25/ 294.
(5) سورة الطور، الآية: 43.

به المشركون)[1]. فكان هذا الدعاء في هذا الموضع مناسباً لأنه يتم به التنزيه والتقديس اللائقان بمقام الله تعالى عقب إنكار المشركين ألوهية من كانت هذه صفاته ﷻ .

ونخلص من ذلك إلى أن استقراء المواطن التي ورد فيها الدعاء بصيغة (سبحان) يظهر لنا أن الله سبحانه وتعالى يُسبّح نَفسه وينزهها عندما يُقال عليه البهتان، وفي المواطن التي تدعو إلى العجب، وقد ورد ذلك في المواطن التي أشرنا إليها.

والملاحظ أن مواطن ورود (سبحان) تتناغم والتنزيه، إذ أنها ترد في سياق الإنكار على الألوهية، أو نسبة ما يوجب النقص، كنسبة الولد أو الشريك إليه، أو التشكيك في قدرته وطاقته.

ومما يعزز قولنا الدراسة الصوتية التي توحي بالدلالات التي تضمنتها المكونة لبنية الصيغة، اعتماداً على السياق الذي ترد فيه، إذ التعويل على السياق والدراسة الصوتية يكشفان لنا خفايا الإعجاز اللغوي الكامن فيها.

ولقد رأينا أن من المفيد العروج على معاني (سبحان) في اللغة، لأهميتها في بيان الرابط بين معاني (سبحان) ودلالات الأصوات التي منها تشكّل وملاحظة السياقات التي وردت فيها (سبحان) دعاءً لله تعالى. ولقد رأينا أن (سبحان الله): معناهُ: تنزيهاً لله من الصاحبة والولد[2]. وقد وردت بهذا المعنى في أربعة مواطن ذُكر فيها نسبة الولد إلى الله تعالى وهي:

الصافات الآية (159)، الزمر في الآية (4)، الزخرف في الآية (82) والطور في الآية (43).

وقيل: تنزيه الله تعالى عن كل ما لا ينبغي أن يوصف[3]. ولذا تكرر قوله

(1) تفسير النسفي: 1228.
(2) لسان العرب: مادة (سبح).
(3) لسان العرب: مادة (سبح).

تعالى: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1] في ثلاثة مواطن من مواطن ورود لفظة (سبحان)، مرتين في سورة الصافات، ومرة في سورة الزخرف.

فقد افترى الكافرون فريةً عظيمة إذ ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾[2] فاستنكر اللهُ تعالى قولهم ووصفهم بقوله: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

وفي الموطن الآخر خالف المشركون ما وعدوا به، وحكى ذلك القرآن فقال تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾[3]، فقال تعالى عقب ذلك ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾، وفي سورة الزخرف كان الرَّدُ على تخرّص المشركين إذ نسبوا إلى الله تعالى الولد، فرد الله تعالى عليهم متبعاً قولهم ومسفهاً عقولهم قائلاً: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[4].

وكان من معاني (سبحان الله) في اللغة تنزيه الله ﷻ عن السوء.

وجماع معناه: بُعده تبارك وتعالى، عن أن يكون له مثل أو شريك أو نِدٌّ أو ضِدٌّ وقد ورد قوله تعالى في موطنين من مواطن الدعاء بـ(صيغة سبحان) معقباً بقوله تعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، الأول في سورة الطور، إذ قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[5].

والثاني في سورة الحشر بعد ذكر كثير من صفات الخالق جل وعلا التي لا يشاركه فيها أحد، قائلاً بعدها: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ونخلص من ذلك إلى القول: إن (سبحان) بدلالاتها المختلفة جاءت في دعاء القرآن في مواطن كان التعقيب عليها مناسباً لدلالاتها فقال تعالى: ﴿عَمَّا

(1) سورة الصافات، الآية: 180.
(2) سورة الصافات، الآية: 158.
(3) سورة الصافات، الآيات: 167-170.
(4) سورة الزخرف، الآية: 82.
(5) سورة الطور، الآية: 43.

يَصِفُونَ﴾ عندما وصف الكفارُ الخالقَ بنعوت لا تليق به، وقال تعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عندما أشركوا به غيره.

وسوف نعرض فيما يأتي للدراسة الصوتية لنجد الرابط بين هذه الدلالات والإحصاء الذي تفرزه الدراسة الصوتية فإن هذه الصيغة التي ارتبطت بعلاقة أسلوبية مع السياقات التي وردت فيها معقبة بعبارات في نحو ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ و﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بمجموعها تشكل أسلوباً يطلق عليه (أسلوب الدعاء)، وهو الأسلوب الذي ستكشف الدراسة الصوتية عن بعض جوانبه التي تشكل إعجازاً قرآنياً في حاجة إلى الوقوف عنده وتأمله والانقياد له والتسليم ببيانه وبديعه.

الدراسة الصوتية:

1 - قال تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

س ـُ ب/ ح ـَـ/ ن ـَ ل/ ل ـَـ/ هـ ـِـ/ ر ـَ ب/ ب ـِ ل/ ع ـَـ/ ل ـَ/

ص م ص/ ص م م/ ص م ص/ ص م م/ ص م / ص م ص/ ص م ص/ ص م م/ ص م

/ م ـِـ / ن ـَ.

ص م م/ ص م.

a	u	i	aa	uu	ii	ق م	م م م	غ م م	م ط	H.v	M.v	L.v	ج	هـ
4	1	2	3	0	1	3	4	3	0	11	5	0	16	3

2 - قال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾[2].

س ـُ ب/ ح ـَـ/ ن ـَ ل/ ل ـَـ/ هـ ـِـ/ ح ـِـ/ ن ـَ/ ت ـُ م / س ـُـ/

ص م ص / ص م م/ص م ص/ص م م / ص م / ص م م/ ص م / ص م ص / ص م م/

(1) سورة النمل، الآية: 8.

(2) سورة الروم، الآية: 17.

ن ـَ/ وـَ/ ح ـِـ / ن ـَ / ت ـُ ص/ ب ـِ/ ح ـُـ / ن ـَ.

ص م/ص م / ص م م/ ص م / ص م ص / ص م / ص م م / ص م.

هـ	ج	L.v	M.v	H.v	م ط	غ م م	م م م	ق م	ii	uu	aa	i	u	a
10	16	3	10	13	0	4	6	7	2	3	2	2	3	0

3 - قال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

س ـُ ب/ ح ـَـَ/ ن ـَ ل/ ل ـَ/ ذ ـِـ/ ب ـِ/ ي ـَ/ د ـِ/ هـ ـِ/

ص م ص / ص م م/ ص م ص/ ص م/ ص م م/ ص م / ص م / ص م / ص م /

م ـَ/ ل ـَ/ ك ـُـ/ ت ـُ/ ك ـُ ل / ل ـِ/ ش ـَ ي/ ء ـِ ن/ وـَ/

ص م / ص م/ ص م م/ ص م / ص م ص/ ص م/ ص م ص/ ص م ص/ ص م/

ء ـِ/ ل ـَ ي /هـ ـِ/ت ـُ ر/ ج ـَ/ ع ـُـ/ ن ـَ.

ص م/ ص م ص/ ص م / ص م ص/ ص م / ص م م/ ص م.

هـ	ج	L.v	M.v	H.v	م ط	غ م م	م م م	ق م	ii	uu	aa	i	u	a
9	25	3	14	17	0	7	4	14	4	3	1	7	4	10

4 - قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2].

س ـُ ب/ ح ـَـَ/ ن ـَ ل/ ل ـَـَ /هـ ـِ/ ع ـَ م / م ـَـَ/ ي ـَ/ ص ـِ/

ص م ص /ص م م/ ص م ص/ ص م م/ ص م / ص م ص/ ص م م/

ص م/ ص م /

ف ـُـ/ ن ـَ.

ص م م / ص م.

(1) سورة يسّ، الآية: 83.

(2) سورة الصافات، الآية: 159.

a	u	i	aa	uu	ii	ق م	م م م	غ م م	م ط	H.v	M.v	L.v	ج	هـ
4	1	2	3	1	1	4	4	3	0	8	6	1	13	5

5 - قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1].

س ـُ ب/ ح ـَـَـ/ ن ـَ/ ر ـَ ب/ ب ـِ/ ك ـَ/ ر ـَ ب/ ب ـِ ل/ ع ـِ ز/

ص م ص /ص م م / ص م/ ص م ص/ ص م / ص م / ص م ص/

ص م ص/ص م ص/

ز ـَ/ت ـِ/ع ـَ م / م ـَـَـ / ي ـَ/ص ـِ/ ف ـُـُـ/ ن ـَ.

ص م / ص م/ ص م ص/ص م م/ ص م / ص م / ص م م/ ص م.

a	u	i	aa	uu	ii	ق م	م م م	غ م م	م ط	H.v	M.v	L.v	ج	هـ
8	1	5	3	1	1	8	3	6	0	13	8	4	20	6

6 - قال تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[2].

س ـُ ب/ ح ـَـَـ/ ن ـَ/ هـ ـُ/ هـ ـُ/ و ـَ ل / ل ـَـَـ/ هـ ـُ ل/ و ـَـَـ/

ص م ص/ ص م م / ص م / ص م / ص م / ص م ص/ص م م/ ص

م ص/ص م م/

ح ـِ/ د ـُ ل/ق ـَ هـ/هـ ـَ/ ر ـُ.

ص م / ص م ص/ ص م ص/ ص م م/ ص م.

a	u	i	aa	uu	ii	ق م	م م م	غ م م	م ط	H.v	M.v	L.v	ج	هـ
3	6	1	4	2	0	5	4	5	0	9	10	0	17	8

7 - قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[3].

---

(1) سورة الصافات، الآية: 180.

(2) سورة الزمر، الآية: 4.

(3) سورة الزخرف، الآية: 82.

س ـُ ب/ ح ـَـَ/ ن ـَ/ ر ـَ ب/ ب ـِ س/ س ـَ/ م ـَـَ/ و ـَـَ/ ت ـِ/ ص م ص / ص م م/ ص م/ ص م ص/ ص م ص / ص م /ص م م/ ص م م/ ص م /

و ـَ ل /ء ـَ ر/ض ـِ/ ر ـَ ب/ ب ـِ ل/ ع ـَ ر/ ش ـِ/ ع ـَ م/ ص م ص/ص م ص/ ص م / ص م ص/ ص م ص/ ص م ص/ ص م/ ص م ص/

م ـَـَ /ي ـَ/ص ـِ/ ف ـُـُ/ ن ـَ.

ص م م/ ص م / ص م / ص م م / ص م.

a	u	i	aa	uu	ii	ق م	م م م	غ م م	م ط	H.v	M.v	L.v	ج	هـ
10	1	6	4	3	1	8	5	9	0	19	10	3	30	8

8 - قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

س ـُ ب/ ح ـَـَ/ ن ـَ ل/ ل ـَـَ/ هـــــ ـِ/ع ـَ م/ م ـَـَ /ي ـُ ش/ ر ـِ/

ص م ص / ص م م/ص م ص/ص م م/ ص م/ ص م ص/ص م م/ص م ص/ ص م/

ك ـُـُ/ ن ـَ.

ص م م/ ص م.

a	u	i	aa	uu	ii	ق م	م م م	غ م م	م ط	H.v	M.v	L.v	ج	هـ
0	4	4	0	2	2	6	8	8	0	18	14	0	38	10

ملاحظة: نتائج الإحصاء في هذا الجدول مضاعفة، لأن الآية تكررت في سورة الحشر.

(1) سورة الطور، الآية: 43، وسورة الحشر، الآية: 23.

obeikandl.com

اسم السورة	رقم الآية	المصوتات القصيرة			المصوتات الطويلة			المقاطع					الذبذبات			المجهورات والمهموسات	
		a	u	i	aa	uu	ii	ق م	م م	م م	غ م م	م ط	H v	M v	L v	ج	هـ
النمل	8	4	1	2	3	0	1	3	4	3	3	0	11	5	0	16	3
الروم	17	6	3	2	2	3	2	7	6	4	4	0	13	10	3	16	10
يسّ	38	10	4	7	1	3	4	14	4	7	4	0	17	14	3	25	9
الصافات	159	4	1	2	3	1	1	4	4	3	4	0	8	6	1	13	5
الصافات	180	8	1	5	2	1	1	8	3	6	3	0	13	8	4	20	6
الزمر	4	3	6	1	4	2	0	5	4	5	4	0	9	10	0	17	8
الزخرف	82	10	1	6	4	3	1	8	5	9	5	0	19	10	3	30	8
الطور	43	6	4	4	6	2	2	6	8	8	8	0	18	14	0	38	10
الحشر	23	6	4	4	6	2	2	6	8	8	8	0	18	14	0	38	10
المجموع		57	25	33	31	17	14	61	46	53	46	0	126	91	14	213	69

الاستنتاجات:

بعد إجراء الدراسة الصوتية على الدعاء القرآني المنسوب إلى ذات الباري (جل وعلا) بصيغة (سبحان) تبين لنا الآتي:

1 - غلبة المصوتات القصيرة وتحديداً المصوت (a) فبلغت نسبته (57) سبعة وخمسين.

2 - غلبة المصوت الطويل (aa) فقد وصل تكريره إلى (31) إحدى وثلاثين مرة.

3 - زيادة المقاطع القصيرة، فبلغت (61) واحداً وستين مقطعاً.

4 - الزيادة الملحوظة بل الغلبة البينة للمقاطع المتوسطة فقد بلغ مجموعها

(99) تسعةً وتسعين مقطعاً، منها ستة وأربعون (46) مقطعاً مفتوحاً وثلاثة وخمسون (53) مقطعاً مغلقاً.

5 - ارتفاع نسبة الذبذبات العالية فبلغت (126) مئة وستاً وعشرين ذبذبة.

6 - الذبذبات المتوسطة لم تكن قليلة فقد وصلت إلى إحدى وتسعين (91) ذبذبة.

7 - وصلت الفونيمات المجهورة إلى ثلاثة أضعاف الفونيمات المهموسة.

وهذه النتيجة التي كشفتها الدراسة الصوتية تتساوق مع المقام الذي وردت فيه (صيغة سبحان) وهو مقام الرد على الكافرين بسرعة وحزم، وتنزيه الله تعالى عن كل ما لا ينبغي له أن يوصف به.

فالذي نستنبطه من هذا الدعاء هو (السرعة والخفة) في طاعة الله تعالى وتنزيهه، وهذا ما أوحت به السياقات، ثم الدراسة الصوتية - كما سنبين ذلك - والدلالة الاشتقاقية أيضاً تنصب في هذا المجرى، لذا سنورد الاشتقاقات التي تحمل هذه الدلالات في هذه الصيغة.

أولاً - الدلالة الاشتقاقية:

قال الخليل (175هـ): (ح س ب، ح ب س، س ح ب، س ب ح) مستعملات[1]. فالاشتقاق (س ب ح) يعني: (المر السريع في الماء أو في الهواء، يقال: سبح سبحاً وسباحة، واستُعِير لمَرِّ النجوم...)[2]. ولا يخفى ما بين دلالة سبحان والسياقات التي وردت فيها من ترابط دلالي، فالسرعة مطلوبة عندما نجد كل شيء غريب مفاجئ يدعونا بإلحاح إلى ذكر الله، فنهتف (سبحان الله)، والداعي إلى سرعة الرد يكون أقوى عند تعلق الأمر بذات الله تعالى وصفاته، أي عندما ينسب الكفرة إلى الله تعالى ما لا يليق به، فيأتي الجواب

(1) العين: (مادة سبح).
(2) مفردات ألفاظ القرآن: مادة (سبح).

سريعاً بذكر (سبحان الله)، فالداعي إلى هذا الذكر يتطلب السرعة و(سبحان) من معانيها (السرعة)، وهذا ترابط دلالي واضح أفرزته الدلالة الاشتقاقية إلى جانب الدلالة المعجمية ودلالة السياق.

و(س ح ب) تعني (جَرُّكَ الشيءَ كسحب المرأة ذيلها، وكسحب الريح الترابَ)[1] ومعلوم أن الريح تكون سريعة في سحبها التراب، وعادة ما يكون السحب مصاحباً للسرعة ومرتبطاً بها، و(ح س ب) بمعنى (عدَّ) يقال: (حَسَبَ المالَ، ورفعَ العامل حسابهُ وحسبانه)[2]، والحساب مطلوب فيه السرعة لا التباطؤ، فإن المحاسب يجب أن يكون سريعاً ليقدر على الحساب الكثير فمعنى السرعة موجود في هذا الاشتقاق أيضاً، و(ح ب س)، من معانيها (الحبس) وهو شيء يحبس به الماء، فهو بمعنى السدّ.

و(الحبس): (الفرس يجعل حبيساً في سبيل الله)[3]، فلا نعدم معاني السرعة في هذه الألفاظ كلها، فالفرس لسرعته يجعل حبيساً في سبيل الله، والسد يبنى ويسرع فيه لصد سرعة جري الماء وحبسه فدلالة السرعة موجودة في هذا التقليب أيضاً. أما التقليبان الآخران وهما (ب س ح) و(ب ح س) فلم نعثر لهما على معنى في المعجمات التي فتشنا فيها، ويبدو أنهما مهملان لا دلالة لهما.

ولكن الذي يجمع دلالات الاشتقاقات الأخرى هو (السرعة) وهي تبرز بشكل جلي في (سبحان) وسياقاتها كما رأينا.

ثانياً - دلالة التشكيل الصوتي لصيغة (سبحان):

الفونيمات المشكلة للفظة (سبحان) هي: (س، ضمة، ب، ح، الألف، ن، الفتحة):

س ـُ ب / ح ـَـَ / ن ـَ

(1) العين: مادة (سحب).
(2) أساس البلاغة: مادة (حسب).
(3) لسان العرب: مادة (حبس).

فالسين: أسناني لثوي احتكاكي مهموس (صفيري)[1].

والباء: (شفوي مجهور شديد)[2] انحباسي انفجاري.

والحاء: (حلقي مهموس احتكاكي)[3].

والألف: (مجهور مصوت. وكذلك الضمة والفتحة)[4].

والنون: لثوي (طرف أسناني أنفي مجهور)[5].

فالملاحظ أن الفونيمات التي تشكل منها (سبحان) موزعة على أغلب المخارج مما أكسب (اللفظة) فصاحة إذ إن (التنافر في قرب الحروف دون بعدها)[6] أي قرب مخارجها.

ثم لا يخلو من دلالة خفية وهي أن التنزيه والتقديس لا يكونان بجزء أو عضو من أعضاء النطق بل يكون ذلك بأغلب مخارج الأصوات، وإنهما يعمان أعضاء النطق، فنحن لا ننزه الله تعالى بمخرج واحد بل بملء أفواهنا، لكي يشمل هذا التقديس الفم كلَّه ابتداءً بالحلق وانتهاءً بالشفتين، والفونيم (س) الذي كان بداية لفظ (سبحان) يتّسم بأنه أكثر إيقاعاً من الاحتكاكيات الأخرى[7] من الفونيمات ذوات الذبذبات العالية، (وهذا ما هو في حقيقته إلا قوة أكوستيكية ناجمة عن سرعة حركة الهواء في منطقة التضيق عند موضع النطق إذ يتم حصر قدر كبير من الهواء في هذه المنطقة الضيقة فتشتد حركته على نحو يجعل توجهه نحو نقطة الخروج سريعاً جداً، ويؤدي تلاحق التردد والسرعة في تواتره وتتابعه عند نقطة الخروج إلى إحداث عمود هوائي كثيف، يتم ترشيحه بين القاطعين

(1) علم الأصوات: 70.
(2) الكتاب: 4/ 574.
(3) الأصوات اللغوية (الخولي): 93.
(4) المنهج الوصفي في كتاب سيبويه: 95، 96.
(5) التشكيل الصوتي: 52.
(6) سر الفصاحة: 91.
(7) Language: Bloomfield: p: 120.

الأماميين في الأسنان، فيكون الصفير الذي نسمع)[1].

وهذا الفونيم أعطى سرعة للفظة (سبحان) وقوة تعبير عن الرفض والإنكار على ما افتراه المشركون، ويلي ذلك فونيم (الباء) الانحباسي الانفجاري المجهور الشديد، وهذه الصفات أكسبت اللفظة قوة وصلابة في الرد والإنكار على الكافرين. وتلاهما فونيم (الحاء) ويوصف بأنه من الفونيمات (ذوات الذبذبات المتوسطة المتراوح مداه بين 100 - 150م/ث)[2]، وهي مناسبة لأغراض المدح والفخر والوصف، ومدح الله تعالى وتنزيهه جليان في (سبحان).

ثم فونيم (الألف) بامتداده وطوله يطيل الذكر ويمده ليشمل كل ما افتراه المعاندون.

وختمت اللفظة بفونيم (النون) ويوصف بأنه (شبه مصوت (vowel-like sounds)[3] من الأصوات الأنفية الموسومة بالإيقاعية والمقطعية)[4] وهي بغنتها وموسيقاها خلقت جوًّا تنغيمياً صاعداً أعطى للفظة سبحان وقعاً مؤثراً وصدًى يرنّ في الآذان معبراً عن صدى الرفض والإنكار لما تقوّله المشركون في حق الله تعالى. فإن (في القرآن إيقاعاً موسيقياً متعدد الأنواع يتناسق مع الجو ويؤدي وظيفة أساسية في البيان)[5]، وقد تكونت اللفظة من أربعة صوامت وثلاثة مصوتات، وهذا الانتقال من الفونيم الاحتكاكي المهموس وهو (السين) المضموم الذي تميز بإيقاع واضح إلى الفونيم الانفجاري المجهور (الباء) ثم إلى المهموس (الحاء) وأخيراً النون المجهورة وما أدته المصوتات من إضفاء الإيقاع عليها أعطى اللفظة وقعاً جميلاً في الأذن وقوةً وسرعةً في الأداء وانسيابيةً في النطق.

---

(1) الأصوات اللغوية رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية: 158.
(2) التشكيل الصوتي: 94.
(3) Language: Bloomfield: p: 120.
(4) ينظر الأصوات اللغوية (الخولي): 92.
(5) التصوير الفني في القرآن: 84.

ثالثاً - دلالة المصوتات في لفظة (سُبحانَ):

١ - المصوتات القصيرة:

في الآيات التسع التي ورد فيها لفظ (سُبحانَ) أحصينا (115) مئة وخمسة عشر مصوتاً قصيراً (57) سبعاً وخمسين فتحة (a)، و(25) خمساً وعشرين ضمة (u) و(33) ثلاثاً وثلاثين كسرة (i).

والفتحة حركة تدل على انفتاح القلب فتظهر كثيراً في أغراض المدح والوصف. وتسمية الفتحة حركة (تسمية تتمشى مع الحقيقة العلمية للحركات والتي يمكن أن ينظر إليها من خلال حركة اللسان، تلك الحركة التي يمكن أن تعتد أساساً لبناء معيار مطرد لتميز الحركات من الصوامت)[1].

وتتميز الحركات (بقوة الوضوح السمعي (Sonority)، وهي القوة التي تتميز بها موجات الصوت)[2]. وتعرف الحركة من الناحية الأكوستيكية بأنها (ظاهرة ناجمة عن تغير طولي في معدل سرعة الصوت، وكون التغير طولياً يعني أن التغير ناجم عن طريقة منشأ الصوت، بحيث تكون سرعة التردد في الحركات مغايرة لسرعة التردد التي نلحظها في الأصوات الأخرى الصوامت)[3].

ومن بين المصوتات تأتي الفتحة في المرتبة الأولى من حيث الخفة، قال ابن جني: (ألا ترى إلى مضارعة الفتحة للسكون في أشياء منها أن كل واحد منهما يهرب إليه مما هو أثقل منه نحو قولك في جمع فُعْلة وفِعْلة: فُعُلاتٍ، بضم العين نحو (غُرُفات) وفِعِلات بكسرها نحو (كِسِرات)، ثم يستثقل توالي الضمتين والكسرتين فيهرب عنهما تارة إلى الفتح فتقول غُرَفات، كِسَرات، وأخرى إلى السكون فتقول غرْفات وكسْرات، أفلا تراهم كيف سووا بين الفتحة والسكون في العدول عن الضمة، والكسرة إليهما؟)[4].

---

(1) الأصوات اللغوية رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية: 204.
(2) الأصوات اللغوية رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية: 207.
(3) الأصوات اللغوية رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية: 206.
(4) الخصائص: 1/ 108.

فيمكن على ضوء هذا القول: (إن الفتحة أخفُ الحركاتِ جرساً وإنها فضلت على غيرها من الحركاتِ حتى عرف عن العرب أنهم ميلوا بين الحركات فأنحوا على الضمة والكسرة لثقلهما، وأجمعوا الفتحة في غالب الأمر لخفتها)[1].

ويظهر من هذا الذي ذكرناه غلبة (الفتحة) في صيغة (سبحان) والسياق الذي ترد فيه فهي في معرض الوصف والمدح لذات الله تعالى وهذا ما يناسبه الفتح، وهذه النسبة العالية من الفتحات مناسبة لهذا السياق الذي يمتاز بالمدح والتنزيه والتقديس.

ثم إن الوضوح السمعي مطلوب في هذا السياق أيضاً، والضمة فيها من الوضوح السمعي ما لا يخفى، لأن الرد على أباطيل المشركين يتطلب الإعلان ورفع الصوت، وقد قلنا سابقاً إن الوضوح كان غالباً في فونيمات (سبحان)، وهنا عززه المصوت (a) وقوة إسماعه فأعطاها قوة وسرعةً ووضوحاً يتلاءم مع السياق الذي يتطلبه هذا الدعاء.

والخفة أيضاً مطلوبة ومتناسبة مع السرعة التي يتطلبها الرد على افتراء المشركين، فقد قلنا إن من معاني (سبحان) الإسراع والخفة، والفتحة تناسب هذا الإسراع وهذه الخفة، وهذا ما سوغ كثرة ورودها.

٢ - المصوتات الطويلة:

بلغ مجموع المصوتات الطويلة في الآيات التي وردت فيها لفظة (سبحان) والتي أجرينا عليها التقطيع الصوتي اثنين وستين مصوتاً، واحدٌ وثلاثون منها من نوع (aa) الألف، وسبعة عشر مصوتاً طويلاً من نوع (uu) الواو، وأربعة عشر مصوتاً طويلاً من نوع (ii) الياء مما يحملنا على القول بأن هذه النسبة العالية من فونيم (aa) تتضمن دلالات، فهذا المصوت (عُرف في مرحلة تاريخية باسم (الهمزة) أي ذلك الصوت الذي ندعوه حديثاً الوقفة الحنجرية glottal stop، والرسم الخطي لهذا الصوت هو (ا) بدون رأس العين الصغيرة (ء) فوقه أو تحته

(1) ينظر جرس الألفاظ: 159.

ومعنى هذا أن الألف اسماً ورمزاً لم تكن في المراحل الأولى ما يسمى أخيراً بألف المد أو ما ندعوه في اصطلاحنا الفتحة الطويلة (aa) كما في نحو (قال)[1].

وهي مع الواو والياء أطلق عليها القدماء مصطلح (حروف المد واللين)، (وإنما سميت لينة لأن الصوت يمتد فيها فيقع عليها الترنم في القوافي وغير ذلك، وإنما احتملت المد لأنها سواكن اتسعت مخارجها حتى جرى فيها الصوت)[2]، والتعبير بـ(اتسعت مخارجها) (تعبير دقيق، فعند النطق بالمصوت /a/ – الذي هو جزء الفونيم /aa/ – ينخفض الفك، ويكون اللسان منبسطاً في قاع الفم (لذلك نجد الطبيب الذي يريد أن يفحص حلق أحد المرضى يطلب إليه أن يقول /a/ وبذلك يحصل على أوضح منظر مع أقل استعمال للأداة غير المحببة، تلك التي تستخدم لتنحية اللسان، وتكون الشفتان واسعتين مفتوحتين، والأسنان العليا والسفلى منفصلة بعضها عن بعض إلى أقصى بعد ويشكل تجويف الفم تجويفاً واحداً إلى أقصى مدى)[3].

والصفة التي تجمع بين المصوتات (Vowels) هي أنه عند النطق بها يندفع الهواء من الرئتين ماراً بالحنجرة، ثم يتخذ مجراه في الحلق والفم في ممر ليس فيه حوائل تعترضه ولا تسمح له بالمرور كما يحدث مع الأصوات الشديدة (فالصفة التي تختص بها أصوات اللين هي كيفية مرور الهواء في الحلق والفم وخلو مجراه من حوائل وموانع)[4]. وعلى هذا تمتلك المصوتات وضوحاً سمعياً عالياً تفوق درجة الوضوح السمعي للصوامت. وتتفاوت المصوتات فيما بينها من حيث الشدة والوضوح السمعي ولكن بشكل عام تعد المصوتات أكثر

(1) دراسات في علم اللغة: 19 وينظر: رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية: 302.
(2) الجمهرة: 1/ 8.
(3) مدخل إلى التصوير الطيفي للكلام: 115 - 116.
(4) الأصوات اللغوية: 26.

إدراكاً من الصوامت على نحو ملحوظ فهي تحمل السمات التنغيمية للنبر وذبذبة الصوت (وهي أكثر الأصوات موسيقية ويمد بها الصوت في الغناء)[1].

وهذا التفاوت في درجات الصوائت أشار إليه القدامى، فقال ابن جني (إن الصوت الذي يجري في الألف مخالف للصوت الذي يجري في الواو والياء... أما الألف، فتجد الحلق والفم معها منفتحين غير معترضين على الصوت بضغط أو حصر، وأما الياء فتجد معها الأضراس سفلاً وعلواً قد اكتنفت جنبتي اللسان وضغطته، وتفاج الحنك عن ظهر اللسان فجرى الصوت متصعداً هناك... وأما الواو فتضم لها شفتيك، وتدع بينهما بعض الانفراج ليخرج فيه النفس، ويتصل الصوت، فلما اختلفت أشكال الحلق والفم والشفتين مع هذه الأحرف الثلاثة اختلف الصدى المنبعث من الصدر وذلك قولك في الألف أ ا وفي الياء إي وفي الواو أو)[2].

إن وجود هذه النسبة من المصوتات في دعاء (سبحان) وخصيصاً المصوت (aa) أضفى عليه سمة موسيقية، يمتد بها الصوت لإطالة الدعاء وإعطائه سمة الامتداد والشمول. فالإيحاء الصوتي لا يمكن إغفاله فمن (يروم ولوج بنية اللغة عليه إيلاء الصوت الاهتمام الذي يستحق من حيث الخصيصة الفيزيائية التي باتت تشكل أساساً للدراسات الصوتية الحديثة والوظيفة اللغوية التي تتجلى بوضوح في الفونيمات المتواشجة الخالقة لذواتها وظائف عن طريق الاستبدال والتحويل)[3] ويلحظ كذلك (أن الدراسة الدلالية لابد أن تبدأ بدراسة الأصوات)[4]. والخصيصة الفيزيائية للمصوت (aa) هي الوضوح السمعي العالي، والموسيقية التي تظهر في مد الصوت به، وهذا الوضوح السمعي مطلوب في دعاء (سبحان) لأنه يأتي لإيصال الإنكار والرد على المشركين الذين

(1) النظام الصوتي التوليدي: 16.
(2) سر صناعة الإعراب: 1/ 8-9.
(3) النظام الصوتي التوليدي: المقدمة.
(4) General phonetics P:15.

افتروا على الله تعالى، فالسياق يتطلب مثل هذا الوضوح، وهذا ما لمحناه في مواطن ورود (سبحان).

رابعاً - دلالة البنية المقطعية (Syllable) في دعاء (سبحان):

لاحظنا خلال الدراسة الصوتية التي أجريناها على دعاء (سبحان) غلبة نسبة المقاطع المفتوحة فقد بلغ مجموعها (107) سبعة ومئة مقطع، (61) واحداً وستين قصيراً و(46) ستة وأربعين متوسطاً.

ولاحظنا زيادة المقاطع المتوسطة فقد وصل مجموعها إلى (99) تسعة وتسعين مقطعاً.

(وعدد المقاطع ونوعها ذو أثر في تحديد الدلالات)؛ لأن (نوعية المقاطع هي التي تحدد قمم الوضوح في الكلمة، وتتفاوت نغمة (Tone) الكلمة وفقاً لنوعية مقاطعها، فهناك المقاطع المفتوحة التي تنتهي بمصوت وتكون أوضح من المقاطع المغلقة التي تنتهي بصامت، وهناك أيضاً المقاطع القصيرة والمتوسطة والطويلة، وإن هذا التنوع في التشكيل يرتبط بالانفعالات والمضامين المختلفة)[1]، فالمقاطع لها علاقة بالمضامين والانفعالات وهذه النسبة العالية من المقاطع المفتوحة تتواشج وسياق المدح والفخر (الكبرياء)، هذه الصفات التي تليق بالباري ﷻ جاءت في مقابل ما نسبه إليه المشركون من أمور توجب النقص كنسبة الولد إلى الله تعالى أو نسبة الشريك إليه (جلّ وعلا).

إن كثرة المقاطع القصيرة وعددها (واحدٌ وستون) مقطعاً تعطي سرعة في الكلام تتلاءم وما مطلوب من سرعة الرد على أباطيل المشركين وتخرصاتهم.

والمقطع كما يعرفه (ماريو ثاي) عبارة عن (قمة إسماع) Peak of sonority غالباً ما تكون مصوتاً مضافاً إليها أصوات أخرى عادة ولكن ليس حتماً تسبق القمة أو تلحقها، أو تسبقها وتلحقها، ففي /ah/ قمة الإسماع كما هو

(1) منهج النقد الصوتي في تحليل الخطاب الشعري: 48.

واضح - هي /a/ ، وفي /it/ هي /i/ ، وفي /do/ هي /o/ ، وفي /get/ هي/e/)[1] ولو لاحظنا الدعاء بصيغة (سبحان) من حيث المقاطع فإنه يكون بالشكل الآتي:

س ـُ ب / ح ـَـَ / ن ـَ.

ص م ص / ص م م / ص م.

أي إنه يتكون من ثلاثة مقاطع، الأول متوسط مغلق يتكون من (صامت + مصوت + صامت) والثاني متوسط مفتوح يتألف من (صامت + مصوت طويل)، والثالث يتشكل من (صامت + مصوت) وقمة الإسماع في المقطع الأول في المصوت /u/ الضمة، وفي المقطع الثاني في المصوت الطويل /aa/ الألف، والثالث في المصوت (a) الفتحة والمقاطع بهذه الصيغة (أي بقوة الإسماع) الموجودة فيها تؤدي الوظيفة الدلالية، لأن الصوت في هذا الدعاء وصل إلى أعلى درجة من الوضوح في صوت اللين (aa) الألف وقد أشرنا إلى دلالتها عند الحديث عن المصوتات.

ولا يخفى ما لفونيم (النون) من أثر مقطعي حين يكون خاتمة لهذا الدعاء فالفونيم (ن) له قوة في الوضوح السمعي وهو مع فونيمي (اللام والميم) يشكل أحياناً أصواتاً مقطعية، فهي (أصوات عالية النسبة في الوضوح السمعي وتكاد تشبه أصوات اللين في هذه الصفة، مما جعل المحدثين يسمونها أشباه أصوات اللين)[2].

فالمقطع الثاني يمتاز بالوضوح السمعي الموجود في المصوت (aa) وهذا الوضوح السمعي مطلوب في هذا الدعاء كما أشرنا سابقاً لأن المقاطع ترتبط بالانفعالات والمضامين، والرد بقوة ووضوح يتناسب مع هذا الدعاء لأنه للدحض والإنكار.

(1) أسس علم اللغة: 96.

(2) الأصوات اللغوية: 132.

خامساً - دلالة الذبذبات في دعاء (سبحان):

لقد بلغت نسبة الذبذبات العالية (H. v) مئة وستاً وعشرين ذبذبة وهذه نسبة عالية تحمل في طيّاتها دلالات لا تنفك عمّا أشرنا إليها في أثناء حديثنا عن دلالات الصوامت والمصوتات والمقاطع وهي ليست بمنأى عن السياق العام الذي ورد فيه الدعاء بصيغة (سبحان)، فقد ذكرنا أن السياق العام الذي يرد فيه هذا الدعاء هو الرفض والإنكار بأبلغ الصيغ على افتراءات المشركين فهذا الأمر يتطلب فونيمات ذوات ذبذبات عالية، لهذا نجد أن هذه الفونيمات التي تحمل هذه الخصائص قد وردت بكثرة في دعاء (سبحان).

ثم التعنيف والتشنيع على قول الكفرة، وخاصة نسبة الولد إلى الله تعالى يتطلب الرد القوي الذي من لوازمه استخدام الفونيمات ذوات الذبذبات العالية.

إن العلاقة بين الفونيمات وصفاتها وبين دلالاتها قال بها العلماء واستشهدوا لذلك بكثير من الأدلة، وقالوا: (إن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع)[1]، وقد سُئِل أحدهم عن مسمى (أذغاغ) وهو بالفارسية الحجر، فقال: (أجد فيه يبساً شديداً، وأراه الحجر). وقد أورد الثعالبي (429هـ) خمس عشرة كلمة كلها تعبر عن (الداهية)/ قال: (وقد جمعت منها ما انتهت إليه معرفتي فمنها ما جاء على فاعلة: يقال نزلت بهم نازلة، ونائبة، وحادثة. ثم آبدة وداهية وباقعة، ثم بائقة وحاطمة وفاقرة، ثم غاشية وواقعة وقارعة، ثم حاقة وطامة وصاخة)[2]، والمتمعن في تشكلية فونيمات هذه الألفاظ يجد أن الداهية اشتدت وقويت كلما اشتدت فونيماتها وقويت، فالفرق بين (نازلة) وصاخة واضح جداً (فالصاخة صيحة القيامة التي تصخ الآذان حتى تكاد تصمها)[3]، فتشديد الخاء فيها يدل على التوجع والتألم، فإن الإنسان عند

(1) المزهر: 1/ 47.
(2) فقه اللغة وسر العربية: 309.
(3) صفوة التفاسير: 3/ 521.

التوجع يقول (آخ)، فشدة الفونيمات معبرة عن شدة الداهية ووقعها وهولها. و(الصاخة لفظة تكاد تخرق صماخ الأذن في ثقلها وعنف جرسها وشقه للهواء شقاً حتى يصل إلى الأذن صاخاً ملحاً)[1].

وقد وصف أبو نواس[2] صقراً (بازياً) حاول فيه تجسيده من خلال القافية، وصوت الروي (ص) يصور لنا حركته السريعة، وقد أكثر من استخدام صوتي السين والصاد في أثناء الأبيات كي يصور قوة طيرانه وسرعة انقضاضه، ويستخدم صوت القاف في تصوير قوة مخالبه وشدة قبضه)[3].

نخلص من ذلك إلى أن الفونيمات وسماتها المميزة قادرة على الإيحاء والتصوير كما نرى، وقد أشرنا إلى غلبة الفونيمات ذوات الذبذبات العالية في دعاء (سبحان) وقلنا: إنها جاءت لأغراض منها التشديد على الكفار والتشنيع عليهم، ثم مَدْحُ الله تعالى وتنزيهُه وتقديسُه.

سادساً - دلالة الجهر والهمس:

لقد لاحظنا التغلب الواضح للمجهورات في دعاء سبحان وسياقاتها، فوصلت المجهورات إلى (213) فونيماً، والمهموسات إلى (69) فونيماً.

ولفظة سبحان المتألفة من (سبعة فونيمات)، خمسةٌ منها مجهورات وفونيمان منها فقط مهموسان هما (السين والحاء)، ولا يخلو ذلك من دلالة الجهر بهذا الدعاء وأنه لا خفاء ولا همس فيه بل هو عَلَنٌ يصمّ آذان المعاندين ويُسكت تخرّصاتِهم.

والانطلاق من إحصاء المجهورات والمهموسات في الكلام إلى الدلالات ليس أمراً عبثياً، لأنّ (سمات الجهر والهمس في الأصوات قد تكون بالغة

(1) التصوير الفني في القرآن: 77.
(2) ديوان أبي نواس: 647.
(3) الأسلوبية الصوتية: 10.

الأهمية في بعض اللغات)[1]، وخصيصاً اللغة العربية التي يؤثر في دلالاتها أدنى تغير صوتي، فالفونيم (حزمة من العناصر التمييزية، ولهذه العناصر التمييزية دورها الخاص في تنظيم اللغات)[2]. والجهر والهمس من العناصر التمييزية في اللغة العربية ويؤدي تباينها ونسبة ورودها وظيفة دلالية. وإن كانت الإحصائيات تشير إلى أنّ الأصوات المجهورة أشيع من الأصوات المهموسة، فعدد الأصوات المجهورة واحد وعشرون في حين أن عدد الأصوات المهموسة ثلاثة عشر، ولكن (إذا تطابق مكان النطق وكيفية النطق لصوتين، فإن الصوت المهموس يكون أشيع عادة من نظيره المجهور. . . فالصوت /ت/ المهموس أشيع من نظيره المجهور /د/ ، والصوت المهموس /س/ أشيع من نظيره المجهور /ز/)[3].

ومعلوم (أن ذبذبة الوترين الصوتيين تشكل العملية المسماة (تصويت) – (phonation) وينتج عن ذلك ما يسمى فنياً بالجهر (voice)، ويسمى الصوت حينئذ مجهوراً (voiced)، وتعد ذبذبة الأوتار الصوتية كذلك مصدر درجة الصوت voice pitch، والمادة المشكلة للتنغيم)[4]، ودرجة الصوت والتنغيم لهما أثرهما النفسي في السمع وتغيير الدلالات تبعاً لذلك، لذا يمكن الركون إلى دلالات الجهر والهمس في أثناء التحليل الصوتي أو الدراسة الصوتية، وقد رأينا أن شيوع المجهورات في دعاء (سبحان) كان منسجماً مع الدلالات الأخرى التي أوحتها الظواهر الصوتية السابقة، فبمجموعها شكّلت انطباعاً سمعياً يوحي بالعلوّ والقوّة في تنزيه الله تعالى وتقديسه.

(1) الأصوات اللغوية (الخولي): 40.
(2) ست محاضرات في الصوت والمعنى: 115.
(3) الأصوات اللغوية (الخولي): 130.
(4) دراسة الصوت اللغوي: 128.